

التسامح الديني مع أهل الذمة بالأندلس

الجزء الثاني: التسامح مع اليهود

بقلم: الأستاذة: سامية جباري
كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر

على التحول عن دينهم". فشتت شملهم، وتفرقت أشياعهم وكلهم أمل في إيجاد مخرج يحررهم من الرق والعبودية التي حبست أنفاسهم، ولما لاح لهم خبر الفتح وبرز طارق بن زياد بالجيش الإسلامي سارعوا إلى مساندة الفاتحين الجدد، ومدوا لهم يد العون "فدلوهم على عورات البلاد وثلّمت الأسوار". آملين في الخلاص وردّ الاعتبار للفئة اليهودية، من هنا وضعوا تحت تصرفهم كل الإمكانيات والقدرات السياسية والعسكرية، فكان الفتح، وكانت معه الثقة والمكافأة "فاتخذوهم حرسا لما كانوا يفتحونه من بلاد وحصون، وأباحوا لهم المحافظة على حريتهم الدينية وعلي عاداتهم وتقاليدهم". فنعموا بتسامح قل نظيره. ونعموا بحياة مترفة في ظل الدولة

من المسلم به أنّ اليهود وجدوا في المجتمع الأندلسي جنبا إلى جنب مع النصارى، وتمتعوا بحقوقهم كاملة في ظل تسامح الإسلام مع أهل الذمة.

لقد أجمعت المصادر على تحديد تاريخ دخولهم الأندلس والذي يرجع إلى سنين قبل الفتح الإسلامي، متوجين أفكارهم بما لحق اليهود من أذى ومضايقات في العهد القوطي، وما تعرضوا له من استبداد وظلم، ونهب للأموال ولما قاسوه من عنت وتشريد في ظل نفسية ناقمة تتأجج غضبا وحقدا على المسيحيين الذين "اتخذوا في حقهم إجراءات قاسية حيث ألزموهم إما باعتناق المسيحية أو الهجرة"، أضف إلى ذلك أنهم أخضعوا لمرات عديدة "لتشريعات قمعية وأكروهوا

أخرى "رغب فيها اليهود أن يخرج لهم ناظر أحد المساجد الماء من المسجد لدورهم. والمسجد ملاصق لدرب اليهود". ثم هذا علي بن يوسف لما عزم على "توسيع جامع القرويين اشتري أرضا تجاوره كانت في ملكية بعضهم".

ويؤكد الدكتور مسعود كواتي أن التزام اليهود بسكنى أحياء خاصة فإنما "يعود إلى اليهود أنفسهم لأنهم يحبون التجمع في أحياء تسمح لهم بممارسة شعائهم بعيدين عن أعين المسلمين، ولأنهم يفضلون الانزواء انطلاقاً من أفكارهم الدينية التي تقول بأن اليهودي أفضل من غيره، وبالتالي عليه أن يتجنب غيره في المعاملة إلا إذا كانت المصلحة تقتضي".

كما أكدت المصادر من جهتها عن تمتع اليهود بعلاقات طيبة مع المسلمين، فقد اندمجوا معهم في شتى مجالات الحياة فخالطوهم وابتاعوا منهم وجالسوهم، وشاركوهم حلو حياتهم ومرها. فكان لهذا الامتزاج أثره في الحياة العامة فأتخذ اليهود اللباس العربي، وثبتت الواقع التاريخي أن "هؤلاء قلدوا أزياء الأعيان من المسلمين متجاوزين بذلك كل المحاذير

الجديدة. فبدأ عددهم يتزايد، وتوالت الهجرات نحو الأندلس حتى أضحت الجالية اليهودية تمثل قوة اجتماعية داخل الدولة لا بد وأن يحسب لها ألف حساب. ومع حلول عهد الطوائف حافظوا على مكانتهم هذه، بل ازدادوا تموقعا وتمرّكزا في الدولة، واستقروا في "كبريات المدن كطليطلة، وقرطبة، وغرناطة التي دعيت بغرناطة اليهود، لكثرة اليهود النازلين بها"، وطر كونة، و"إلياسنة التي ضمت أعدادا هائلة منهم"، وجاوروا المسلمين في مساكنهم فلم يتعرضوا إلى ظلم أو أذى، بل تعدوا مجاورة المسلمين إلى "الإقامة بأحياء خاصة سميت بأسمائهم". فيذكر أن قرطبة كان بها "حي يعرف بربض اليهود"، والملاحظ أن إقامتهم في أحياء خاصة لم تمنع من وجود دور للمسلمين بها، وإن كانت قليلة، وهذه الحقيقة نستدل على وجودها من نوازل الفترة، كالقضية التي أوردها الونشريسي عن "ضرر يهودي اشترى دارا من مسلم في درب يسكنه أهل خير فسكنها وتأذى الجيران بما لا يجوز فعله كشرب الخمر".

وبعض دورهم كانت ملاصقة للمساجد. فقد أورد الونشريسي قضية

الطوائف والمرايطين، تركت لليهود حرية المعتقد، ولم" يصدر تشريعات خاصة باليهود" بل أوكلوا لهم حرية التنظيم والتنظير لتشريعاتهم وأحكامهم مراعين في ذلك خصوصياتهم.

فقد تهيكل اليهود في " جماعة يرأسها شيخ اليهود الذي يدعى الجاون Gaon" وهي تسمية تميزت بها العهود الأولى للإسلام في الأندلس وكان يمثلها حسداي بن شروط الذي عينه عبد الرحمن الثالث. وبعده ظهر " ابن النغيلة ثم ابنه يوسف" من بعده إلى جانب ابن ميمون . ويلي رئيس اليهود مجموعة من الموظفين الذين تولوا الإشراف على جمع التبرعات ورعاية المعابد اليهودية. ومن الجماعة اليهودية الروحانيين " الحزان" وهو الذي يتولى الإشراف على الصلاة، مشرطين فيه المعرفة الوافية بالتلمود وأحكامه. كما توكل إليه وظيفة التعليم.

ويشير بوتشيش أن هذا التنظيم في المرحلة الثانية من العصر المرابطي اتخذ شكلا منظما ودقيقا، حيث أصبح رأس جماعة من اليهود نفر من الطاهرين، يدعى الواحد منهم "البرور" وكان

الفقهاء". فقد أورد الونشريسي نازلة عن رجل يهودي " كان يرتدي عمامة وخاتما ويركب السروج على فاره الدواب على عادة المسلمين في الأندلس ويجلس في حانوته دون غيار ولا زنار يتميز به عن عموم المسلمين".

كما أنهم تحدّثوا اللغة العربية، واندمجوا اندماجا عميقا في الحضارة الإسلامية "متمادين في استخدام الأسماء العربية حتى بعد زوال السيادة العربية بزمن طويل". إذ نجد " يهودا بن ليفي الطليطلي الذي كان يكنى بأبي الحسن، وأبراهام بن داود كان يسمى بأبي إسحاق إبراهيم بن المجيد".

ونظرا للتسامح الكبير الذي حظي به اليهود دفع البعض منهم إلى اعتناق الإسلام، وقد أطلق على اليهودي الذي أسلم تعبير "سلامي" ومن يسلم عن كرهه لفظ "إسلامي" ولنا مثالا على ذلك أبو الفضل حسداي بن يوسف الذي اعتنق الإسلام وهو أحد وزراء المقتدر بن هود في بلاط سرقسطة. فقد كان من "أشراف اليهود بالأندلس ويعود أصله إلى ولد موسى عليه السلام".

ثم إن الدولة الإسلامية في عصر

الصقالبة" وغيرها كثير مما "أكسبهم المكانة الراقية في المجتمع حيث تم إشراكهم في جيش البلاد" إلى جانب ذلك كانوا "يكونون الحرس الخاص لأمر المسلمين علي بن يوسف". وقد أقر ذلك "ريموند" بقوله : " لم ينشأ في أي من المجتمعات اليهودية الأخرى مثل هذا العدد الكبير من اليهود، ممن أحرزوا مناصب مرموقة بل مراكز نفوذ في العالم غير اليهودي".

ولعل أهم شخصية يجدر الوقوف عندها هي إسماعيل بن التغريلة الذي ذكره المؤرخون بأنه " أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ودمائة وركانة ودهاء ومكرا وجبنا ومدارة للعدو، كما كان من أهل الأدب والشعر وأتقن اللغة العربية كتابة وشعرا، حتى أصبح يكتب بها لنفسه ولباديس بن حبوس فضلا عن إتقانه لفصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ، والتزكية لدين الإسلام فضلا عن ذلك فقد كان ملما بعلوم الهندسة والمنطق وقد أغرم بجمع الكتب" فالمصادر لا تذكر ابن التغريلة إلا مقرونا "بالوزارة التي تقلدها في بلاط بني زيري والتي أهلتة لنيل حظوة عالية كادت تبلغ به حد السيادة وهو فريد لم يعرفه

لهذا نفر مجلس يدعى " البروريم" ومدة ولايته لا تتجاوز السنة، تمثلت مهامه "في مسؤوليته الكاملة أمام الإدارة المرابطية في كل ما يتعلق بالضرائب والالتزامات الأخرى" حتى وردت بعض الأمثال الشعبية ناقمة عن تأديتها للضرائب التي يستلمها منهم اليهود.

أما فيما يتعلق بالنازعات والقضايا الجبائية فإن حلها بالضرورة يرجع إلى "مؤسسات اليهود القضائية لتحل حسب الشريعة اليهودية" عدا بعض النزاعات التي تستوجب الرجوع إلى المحكمة الإسلامية.

الحياة العامة:

أما في الحياة العامة فإن حظ اليهود كان أوفر من النصارى فقد شغلوا مناصب متعددة في عهد الطوائف خصوصا "الإدارة، والمالية والوزارة، والحجابه، والكتابة". بينما منعوا منها في العهد المرابطي واشتغل نفر منهم في "الطب والهندسة والتعليم كما برعوا في صناعة الحرير والزجاج والمواد الصيدلانية" وامتحن عدد منهم صناعة الورق على أن أوسع مجال عملوا فيه هو التجارة، وأهم تجارة اشتهروا بها هي "تجارة الرقيق وبخاصة

تاريخ الأندلس من قبل ولم يعرفه كل تاريخ العصور الوسطى على التأكيد . حتى أضحي شخصية مركزية في المجتمع اليهودي مستحقا لقب "ناغدا" أي أمير، وذلك لميله الشديد "لبنني جنسه وحفاظه بشدة على هويته كاعتراف منهم بفضله وعلمه ومكانته".

من قوله:

أدين بدين السبت جهر الديكم
وإن كنت في قومي أدين به سرا
وقد كان موسى خائف مترقباً فقيراً
وأمنت المخافة والفقرا

وإذا كان ابن النغيلة كما قيل ألمع حاخامات البلاط، فقد كان هناك آخرون "كأبراهام في البلاط الزيري في غرناطة. وإسحاق بن حسداي في البلاط اليهودي في سرقسطة، وأبي الفضل بن حسداس كذلك في بني هود، وأبراهام بن مهاجر بين بني عباد في إشبيلية".

أما في البلاط المرابطي فنجد ألمع الأسماء كالشاعر "أبي يعقوب سليمان ابن المعلم الذي حمل صفة الأمير والوزير، وأبي الحسن أبراهام بن سيرين كامنيال، والوزير سليمان بن فاروبال الذي اغتيل عقب معركة

إفليش وهو يؤدي مهام دبلوماسية". والملاحظ أن كثيراً من هذه الشخصيات كان يحمل لقب وزير وغالباً ما كان هؤلاء الوزراء يجمعون بين الوزارة والكتابة، حيث نجد ابن التغيلة بدأ أولاً "كاتباً بدولة بني زيري إذ هو من أهل الأدب والشعر" ثم ارتقى شيئاً فشيئاً حتى انتهى به الأمر إلى السيادة فضلاً عن جباية الأموال وقيادة الجيوش، ثم كان خليفته من نسله ابنه يوسف الذي سيطر سيطرة تامة على مقاليد الحكم، فقد كان مشرفاً على الكتابة والجباية وتعيين العمال وعزلهم"، ثم ارتقى إلى أن "قلد باديس بن حبوس في لباسه بحيث أصبح من غير السير التفرقة بين الرئيس والمرؤوس".

وهكذا صارت "لليهود صولة على المسلمين في دولتهم". ويورد لنا ابن عذارى مثالا عن سطوة هؤلاء "في شخصية أحد كتاب أبي عمر بن يناله عامل غرناطة الذي كان يهودياً، وأنه أصبح يحشر أنفه في كل الأمور السياسية، حتى نجح في اغتيال أحد مساعدي العامل المذكور"، كما أسند إليهم علي بن يوسف بعض المناصب المهمة "فكان أطباؤه

ولديك من حث الكؤوس أوأهرا
في الخزيمرح كالأراكى في الورق
ومن المهام السياسية العظيمة التي
أوكلت لليهود مشاركتهم في دبلوماسية
الدولة، حيث شغلوا منصب السفراء
فقد شاركوا في البعثات التي كان يرسلها
أمراء الدولة الإسلامية إلى ملوك الدولة
المجاورة ومثالنا في ذلك "سفارة ألفونسو
إلى المعتمد بن عباد لأخذ الجزية منه مثله
اليهودي ابن شاليب الذي تطاول على
المعتمد فلقى حتفه على يده".

والمعتمد بدوره كان له سفير يدعى
ابن مشعل اليهودي استعمله في علاقته مع
ألفونسو.

وأما فيما يخص العصر المرابطي فلم
نعثر في المصادر على شخصيات يهودية
تولت مهام السفارة، ربما لسياسة الدولة
الداخلية التي تشددت في التعامل معهم
من ناحية تولي المناصب الإدارية، وقد
ورد ذلك على لسان علي بن يوسف في
رسالته "وكذلك نوكد لكم أتم التأكيد عن
أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في
أمور المسلمين لأنه من فساد الدين.

وقد يرجع ذلك إلى أن الدولة المرابطية

الخاصون من اليهود كأبي أيوب سلمان
بن المعلم وأبو الحسن بن عبد الرحمان بن
ميّار اللذين لقبا بلقب الوزراء.

وثمة شخصية يهودية كبيرة مثل
"الشاعر موسى بن عزري الذي أحرز
لقب صاحب الشرطة".

وهكذا فإن الشعر والأدب وسيلة ترفع
من صاحبها إلى أسمى مراتب الدولة بغض
النظر عن دينه؛ فنبغ عدد من الشعراء غير
المسلمين وتولى بعضهم الوزارة، وشكلوا
ما يمكن أن نسميه "شعر أهل الذمة"،
كالذي نجده عند أبي الفضل حسداي
وقد بلغت فيه الصنعة أوجها، يقول:

توريد خدك للأحداق لذات عليه
من عنبر الأصداغ لامات
نيران هجرك للعشاق نار لظى

لكن وصلك إن واصلت جنات
كأنما الراح والراحات تحملها يدور

تم وأيدي الشرب هلات
ومنهم إسحاق بن شمعون القرطبي
الذي برع في الموسيقى وظل ملازما لابن
باجة لفترة طويلة، كان كثير الشرب رقيق
الشعر له :

قم هات كأسك فالنعيم قد اتسق
والعود عن داعي المسرة قد نطق

مترامية الأطراف وهي أول دولة وحدث بين المغرب والأندلس، فمن ثم تعددت المواهب وكثر أصحاب المعارف من المسلمين على حين في دولة الطوائف كانت عبارة عن دويلات صغيرة بحيث لم تتوفر إلا على قلة من ذوي الكفاءات تصلح لخدمة البلاط" فاستعين باليهود ممن ظهرت مواهبهم في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية فصارت لهم صولة في دولة الإسلام".

الحركة الفكرية:

ومن مظاهر التسامح الديني تلك الامتيازات الخاصة التي تمتع بها اليهود فقد نشطت الحركة الدينية اليهودية وأصبح التأليف في مفاهيمها ومبادئها رائجا في الأوساط الفكرية. فقد سبق وأن أشرت إلى تمكن اليهود من اللغة العربية إلى جانب لغتهم العبرية وكان منهم الأدباء والشعراء ممن نالوا الخطوة وذاع صيتهم كل ذلك هيا لهم المجال واسعا لأجل التأليف متأثرين بالثقافة الإسلامية حيث اقتفى عدد من الشعراء اليهود آثار الأدب العربي وتمثلوا صورته " حتى أول نحوي علمي لغتهم العبرية وضعه أبو زكريا

حيوح العالم اليهودي باللغة العربية". كما نظم ابن جرول اليهودي من علماء القرن الخامس هجري " قواعد النحو العبري في قصيدة عبرية جعلها أربعمائة بيت من بحر الرجز" ويضيف بلاشيا أن هذا العالم كان " كثير التحسر على انصراف إخوانه في الدين من أهل سرقسطة عن لغتهم المقدسة ويسميهم الجماعة العمياء، على أنه هو في حد ذاته كانت كتاباته باللغة العربية" وقد بلغت درجة النشاط الديني ذروتها مع إسحاق الفاسي اليهودي الذي خلف موسى عزرا في منصب " حبر غرناطة" في بداية القرن السادس الهجري " ولعب دورا أساسيا في التكوين الديني لليهود الأندلس".

كما قويت شوكتهم بظهور المدارس التي تعمل على إحياء التراث اليهودي وتجديد الدراسات اليهودية على ضوء ما وصل إليه الفكر الإسلامي من تطور مغتنيين الحرية المتاحة لهم". فقد وضع " يهود شويج الفاسي قاموس العبرية" ومباحث قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية كما كانت " الشخصيات البارزة تنظم القصائد والموشحات بالعبرية ويغتنمون الفرص والمناسبات ليرتلوها أشعارهم فيها".

"يهود إلياسنة وهم أغنى اليهود في الأندلس أن يشتروا حرية العبادة بجزية ثقيلة". وقد ضجعه على ذلك أحد فقهاء قرطبة الذي " زعم أنه وجد في بعض أوراق مؤلف صنفه ابن مسرة القرطبي حديثاً منسوباً إلى النبي ﷺ يروي أن اليهود تعهدوا بأن يؤمنوا بالدين العربي ويعتنقوا الإسلام إذا حلت المائة الخامسة من الهجرة". فلما تراءى له مبدأ لا إكراه في الدين عدل عن رأيه واكتفى بإرغامهم على دفع جزية ثقيلة سدّ بها يوسف بن تاشفين نفقات الدولة المتزايدة.

ومع ذلك تعالت أصوات الفقهاء تدعو إلى التشدد في التعامل مع اليهود من خلال كتب الحسبة التي حدّدت الكثير من العلاقات معهم كالذي أورده ابن عبدون في رسالته يقول: " أن لا يحك مسلم ليهودي ولا لنصراني، ولا يرمي زبله، ولا ينقي كنيفه. فاليهودي والنصراني كانوا أولى بهذه الصنع لأنها صنع الأذلين، ولا يخدم مسلم دابة يهودي ولا نصراني ..". كما قال " يقطع ضرب النواقيس في ديار الإسلام وحمل القسيسين على الزواج ومراقبة الكتب التي يبيعها اليهود والنصارى عدا كتب ملتهم ومنع أطباء

وهكذا انتعشت الحركة الفكرية اليهودية في ظل الدولة الإسلامية متأثرة بالثقافة العربية أولاً وهذا دليل قائم على روح التسامح مع أهل الذمة.

ومع كل ما تقدم ثمة حقائق لا بدّ من الإشارة إليها فكثيراً ما تذكر المصادر أن اليهود بقدر ما تمتعوا به من نفوذ وسلطة وجاه في عهد الطوائف دارت عليهم الدوائر في العصر المرابطي لاسيما مع بداياته. في عهد يوسف بن تاشفين مما جعل المستشرق بروكلمان يقول: "لما تم السلطان للمرابطين انتهى اليهود إلى حال من العسر بالغة.

وهذا أمر يبدو طبيعياً فقد حمل يوسف بن تاشفين لواء الجهاد والتمكين لدين الله في الأندلس بعدما رأى تخاذل ملوكها وتفرقهم ثم تسلك اليهود الذين أباحوا أموال المسلمين ودماءهم، فليس من المعقول لدولة رفعت راية الجهاد وأقرت مبدأ السنة منهجاً لسياستها أن "تسمح لهؤلاء الاحتفاظ بمكانتهم الرفيعة بين الرعايا المسلمين".

لذلك خيرهم يوسف بن تاشفين بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية فاضطر

اليهود والنصارى من معالجة المسلمين".

ومن هنا "لم يسمح المرابطون لليهود بالسكن في المدن التي أحدثوها إذ كانوا يسمحون لهم بدخول مراكز نهارا والسكنى في أغمات"، والملاحظ أن هذا الإجراء لم يتخذ في حقهم اعتباطا أو تعسفا إنما على سبيل الاحتياط، وذلك نظرا للظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت عليها الدولة، ولتضارب الأحوال الداخلية من فتن واضطرابات من "لدى ظهور المهدي بن تومرت ثم لتكالب النصارى على دولة الإسلام، وقد كانت لهم مشاركة واضحة للنصارى في حربهم ضد المرابطين".

وازداد الحرص أكثر بعد تغريب النصارى، "فضيّقوا عليهم الخناق خوفا من عمليات التجسس لاسيما وأن مراكز عاصمة الدولة ومركز لتجمعات الجيش وما يتصل به من خطط وتحركات عسكرية". إلا أن البعض أرجعها إلى سياسة بعض الحكام المرابطين التي تهدف إلى إدخال اليهود في الإسلام لذلك كان التضييق عليهم.

وهكذا يتبين لنا أن وضعية اليهود تراوحت بين الشدة والرخاء وذلك تبعا

للظروف الاقتصادية والسياسية للبلاد إلا أن ذلك لم يمنعهم من المشاركة الفعلية في ازدهار البلاد في مختلف مجالات الحياة، وقد احتكروا زمن المرابطين خطة "الفكاكة" والفكاك هو "القائم على فك وفداء أسرى المسلمين والتجول في الممالك الأوربية وفي دار الإسلام والأندلس خاصة لفك الأسرى" فأى ثراء لهؤلاء! وأي اضطهاد افتراه البعض على المرابطين؟

وإجمالا يمكن القول إن أهل الذمة شكلوا طبقة مهمة في المجتمع الأندلسي لعهدي الطوائف والمرابطين وقد نعموا في ظلّ تسامح الإسلام بحريّة المعتقد فنشطوا في مختلف المجالات وساهموا مساهمة فعالة في البناء الحضاري والرقى الاقتصادي، وتبوّأوا المكانة الرفيعة إذ أسندت إليهم الوظائف العلية. فقابلوا التسامح بالغدر والأمانة بالخيانة. وقد عدّدت المصادر جوانب من "غدرهم لما يخفون في أنفسهم من عداوة لأهل الإسلام".

ملاحظة: للموضوع هوامش